ثانياً : الأيوبيون

أسفر نزوح الخوارزميين إلى إقليم الجزيرة، واستيلاؤهم على مناطق قريبة من حرّان وسروج والرها والرقة كما سبق القول ، إلى إثارة فزع الأهالي هناك لما جبل عليه هؤلاء الخوارزميون من خشونة وقسوة وجفاء يفوق الوصف، وفي فترة بالغة الدقة في تاريخ الشرق الأدنى المهدد شرقاً من المغول وغرباً من الصليبيين، والمبتلى بالصراع الدائر بين حكامه الأيوبيين وخصومهم سلاجقة الروم في الشمال .

وكان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل يحكم الجزء الشمالي من بلاد الجزيرة من قبل أبيه الكامل، وكان يتخذ من حصن كيفا الواقع على نهر دجلة مقراً لحكمه(١) ، فأصبح لزاماً عليه آنذاك أن يفعل شيئاً ما في مواجهة هذه المشكلة التي سببها الخوارزميون بنزولهم المفاجئ في قرب هذه المناطق.

ولم يلبث كبار أمراء الخوارزميين وعلى رأسهم بركة خان، وكشلو خان، وصاروخان وبردى خان ومعهم جماعة كبيرة من الأمراء والمقدمين والعساكر تزيد عدتهم على خمسة عشر الف فارس أن توجهوا إلى الصالح نجم الدين أيوب، فأظهر البشر بقدومهم عليه، وأكرمهم، وأنعم عليهم، واضطر إلى إعفاء جميع الأمراء الذين كانوا معه من غلمان أبيه وقرابته من وظائفهم، وأعطى أخبازهم للخوارزمية(٢) .

وهكذا وضع الصالح نجم الدين أيوب نفسه في معرض الخطر، فالخوارزميون كانوا يدركون تماماً أنه قد وضع نفسه بين أيديهم دون نصير أو حام، وأبوه الكامل في مصر، لم ينس بعد تطلع ابنه إلى احتلال عرشه في

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٦٣ .

(١) ابن إبراهيم الحنبلي: شفاءالقلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٣٠، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣١١ .

أثناء خروجه إلى الشام منذ بضعة سنوات مضت .

وكان الأمراء المفارقون للصالح نجم الدين أيوب قد توجهوا إلى مصر لخدمة أبيه الكامل فتحدثوا بأغراضهم، فشق ذلك على أبيه، وسيّر إليه، وأنكر عليه ما فعله، فكتب إليه يعرفه عذره، وهو أن الخوارزمية قد وصلوا إليه في خمسة عشرة الف فارس ويزيدون، وما كان له قدرة بمحاربتهم وطردهم من البلاد، وأنه خاف أن يأخذوا البلاد، ويستولوا عليها ويخرجوه منها، فبان عذره عند والده، وشكره على مافعله(١) .

فلما أطمأن الصالح نجم الدين أيوب إلى موافقة أبيه بادر إلى استخدامهم وأقطعهم مواضع بالجزيرة، وتقوى بهم حتى هابه جيرانه الملوك(٢) ومنهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والملك الأرتقى المنصور صاحب ماردين.

وجاءت وفاة الملك الأشرف بن العادل الأيوبي صاحب دمشق في الرابع من المحرم سنة ٦٣٥هـ اختباراً لمدى قوة الصالح نجم الدين بعد تدعيم جيشه بالخوارزميين، ذلك أن الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن العادل ا لأيوبي لما ملك دمشق بعد أخيه الأشرف سيّر ولده الملك المنصور نور الدين محمود إلى الشرق، فتسلم ما كان بيد الملك الأشرف من بلاد الجزيرة وهو سنجار ونصيبين والخابور، فلما نازل السلطان الكامل بن العادل الأيوبي دمشق في جمادى الأولى من نفس السنة أرسل إلى ولده الصالح نجم الدين يأمره بقصد سنجار، فقصدها ونازلها، فسلمها إليه ابن عمه الملك المنصور بالأمان،

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٧، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٥٦، ابن خلدون : لعبر جـ٥ ص٣٥٥ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٣٢، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٣١ .

فتسلسبا وما معه ـ ل لبلاد(١) .

وأراد الصالح نجم الدين أن يوطد علاقته بالخوارزمية فزوّج أخته من والدته من بركة خان كبير الخوارزمية، وتقرر أن يزوج ولده المغيث عمر ابنة بركة خان، وجعله بينهم يركب معهم، وينزل معهم، ويسير حيث يسيرون،ولم يزل ا لأمر كذلك وهم يظهرون طاعتهم لنجم الدين حينا ويتغاضون حيناً، ويطلبون منه ما لاتصل قدرته إليه(٢) .

رأى الصالح نجم الدين – تنفيذاً لأمر أبيه السلطان الكامل – النزول على الرحبة الواقعة غربي الفرات – وكانت تابعة للملك المجاهد أسد الدين شيركوه الأيوبي صاحب حمص وكان في موقف عداء مع السلطان الكامل منذ خروجهما معاً لمحاربة علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم سنة ٦٣١هـ، فحاصرها نجم الدين فلما ورده الخبر بوفاة أبيه الكامل طمع فيه الخوارزميون، وخرجوا عن طاعته وأرادوا القبض عليه، فخافهم، وترك خزائنه وأثقاله وعبر الفرات من عند دير شير، فنهبوا الجميع، ولما وصل إلى سنجار سار إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فحاصره فيها في ذي القعدة من نفس السنة، فأرسل الصالح نجم الدين إلى لؤلؤ يسأله الصلح فأبى، وقال: «لابد من حمله إلى بغداد في قفص، وكان لؤلؤ والمشارقة يكرهون مجاورته وينسبونه إلى الكبر والتجبر والظلم»(٣) .

أما الخوارزميون فقد أخذوا يتنقلون من مرج إلى مرج يأكلون ويشربون

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٥٣، ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٨٤ .

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٧، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٩٧، وهو يذكر أن أخت الصالح لوالدته كان أبوها الفارس قليب مملوك السلطان الكامل وكان قد سلم إليه أمر حران والرها.

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٠٤، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٧٨، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٦١

فبعث إليهم الملك الصالح يستنجد بهم، وهم يتغافلون عنه[١] ثم توجهوا إلى قلعة حرّان فأجفل أهلها ، وكان بها الملك المغيث بن الصالح نجم الدين أيوب، فخاف منهم وسار مختفياً نحو قلعة جعبر، فصبوه، ونهبوه ومن معه، وأفلت في شرذمة من أصحابه إلى منبج مستجيربعمة والده «ضيفة خاتون» وكانت تحكم حلب وصاية على حفيدها الصغير، فاعتذرت له بوجه لطيف وقيل له «نخاف أن يطلبك منا سلطان الروم ولايمكننا منعك منه»[٢] .

وهكذا أصبحت بلاد الجزيرة مرتعاً للفوضى السياسية والعسكرية، فسلطان سلاجقة الروم غياث الدين كيخسرو كان قد ارتبط بعلاقة المصاهرة الجبرية مع الملك الصغير الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي صاحب حلب، وفرض عليه أن تكون السكة والخطبة في حلب باسمه[٣] ثم أخذ يضغط الآن بكل قواه على بلاد الجزيرة، ومن ثمة فقد عزم أن ينتزع من أملاك الصالح نجم الدين أيوب آمد وسميساط ويضمهما إلى ممتلكاته الخاصة، وعلى انتزاع الرها وسروج وضمهما إلى الملك الناصر صاحب حلب، وعلى إقطاع عانة وغيرها من بلاد الخابور لحليفه الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وإعطاء سنجار ونصيبين لحليفه الملك المنصور الأرتقى صاحب ماردين[٤] .

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٧ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٢، عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩١ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٣، أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٦٢، ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٣٩ .

(٤) المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٢٧٠، عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٧٥ .

أدرك الخوارزميون – حينذاك – خطورة الموقف بالنسبة لهم، والذي كان يعني في أقل درجاته العودة بهم مرة أخرى لدائرة الخضوع لسلطان سلاجقة الروم، فاتجهوا إلى التحالف مع الملك المنصور الأرتقي صاحب ماردين(١) القريبة من حرّان التي كانوا يقيمون حولها.

وكان الملك المغيث بن الصالح نجم الدين قد نجح في العودة خفية إلى حران حيث وافاه رسول أبيه القاضي بدر الدين السنجاري قاضي سنجار(٢) وكان نجم الدين قد دلاه طوعاً من سورها ليلاً في أثناء الحصار، فمضى إلى الخوارزميين وشرط لهم ما أرادوا حتى إنه بذل لهم حرّان والرها وغيرهما(٣) وأطمعهم في أن صاحب الموصل في جمع يسير، ومعه أموال عظيمة وخيل، وأن أمواله وأموال عسكره ستكون غنيمة لهم وحدهم، فساقوا جميعاً من حران جرائد وكبسوا بدر الدين لؤلؤ على سنجار، فانهزم عسكره منهم أقبح هزيمة وفرّ هو وحده على فرس سابق إلى الموصل فنهبوا أمواله وخزائنه وجميع ما كان معه(٤).

وكثرت الغنائم التي حصلها الخوارزميون من بدر الدين لؤلؤ جداً حتى إن الدواة المفضضة التي كانت تساوي مائتي درهم بيعت بخمسة دراهم، والطشت والإبريق بعشرين درهما، واقتسموا الكوسات والنقارات، واستغنى الخوارزميون من جراء ذلك كثيراً(٥).

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤١، عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩١.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٨٧، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٣٠.

(٣) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٢، الذهبي: العبر جـ٥ ص٣٥٥، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣١٥.

(٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٧، النويري : نهاية الأرب جـ٢٥ ص٢٣٣.

(٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٠٤، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٦١، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٠٠.

أما النتائج المهمة التي ترتبت على ذلك كله فكانت خروج الصالح نجم الدين – بفضل الخوارزميين – من الحصار بسنجار وعودته إلى مقر حكمه في كيفا، واسترداد مهابته بين ملوك الشرق، وتوقف الحلف المعقود بين الخوارزميين وصاحب ماردين، والاستعداد لمواجهة تسلط سلطان سلاجقة الروم الذي كان قد سير عسكره إلى آمد، وبها المعظم غياث الدين تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب، فأخذ الروم بعض قلاعها وأقاموا محاصرين القلاع الأخرى، فسار إليهم الخوارزميون بأمر الصالح نجم الدين أيوب، فأوقعوا بجند الروم وأزاحوهم عن آمد، وأخرجوا تورانشاه من حصره فتوجه إلى أبيه في حصن كيفا(١).

الخوارزميون والشام

تتابع على حكم مدينة دمشق عاصمة الشام في سنة ٦٣٥هـ أربعة من الملوك الأيوبيين أولهم الملك الأشرف بن العادل الذي توفى في الرابع من المحرم، ثم أخوه الصالح اسماعيل بن العادل الذي أخرج منها في التاسع عشر من جمادى الأولى من قبل أخيه السلطان الكامل بن العادل الذي توفى في الحادي والعشرين من رجب من نفس السنة، وأخيراً الملك الجوادبن ممدود بن العادل الأيوبي(٢).

وفي سنة ٦٣٦هـ خاف الملك الجواد من السلطان العادل الثاني الذي خلف أباه السلطان الكامل في حكم مصر – وكان على خلاف مع أخيه الصالح نجم الدين أيوب صاحب الجزيرة – فراسل الملك الجواد الملك الصالح

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٣، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٩٠، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٢٧١.

(٢) أبو الفدا المختصر جـ٣ ص١٦٠– ١٦١، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٤٨.

نجم الدين أيوب، واتفقا على أن يسلم إلى الملك الصالح دمشق، ويعوضه الملك الصالح عنها الرقة وسنجار وعانة، وحلف كل منهما للآخر(١).

وقد رتب الصالح نجم الدين قبل خروجه من الشرق مكانه ابنه الملك المعظم تورانشاه فأقام في حصن كيفا، كما رتب النواب بآمد وديار بكر، وأعطى حران والرها للخوارزمية الذين كانوا في خدمته(٢) فاستقر بعضهم هناك، وصحبه بعضهم إلى دمشق التي تحرك إليها في مستهل جمادي الأولى من نفس السنة(٣).

التحرك الخوارزمي الثالث (حرّان - دمشق)

ولم يقتصر الجيش الذي صحب الصالح نجم الدين على خواصه والخوارزميين فقط فقد وافته نجدة طلبها من الأمير بدر الدين لؤلو صاحب الموصل بعد أن صالحه(١) كما وصلته قوات أخرى عند وصوله إلى دمشق على رأسها الملك المظفر صاحب حماة في جمادى الآخرة(٤).

وفي دمشق - وبعد انتهاء إجراءات التسليم - خرج الملك الجواد وركب والعسكر في خدمته، فقال لهم : سلطانكم الملك الصالح، فحلّف الصالح العساكر في تلك الساعة، إلا الأمير سيف الدين على بن قليج، فإن الصالح قبض عليه(٥) وهكذا احتوى الصالح نجم الدين أيوب على عسكر دمشق.

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٢٤، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٤٣.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٤ - ٢٤٥، ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٦٨.

(٣) المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٢٧٩ - ٢٨٠، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاءالقلوب ص٣٣٠.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٥، أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٤.

(٥) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٤٣.

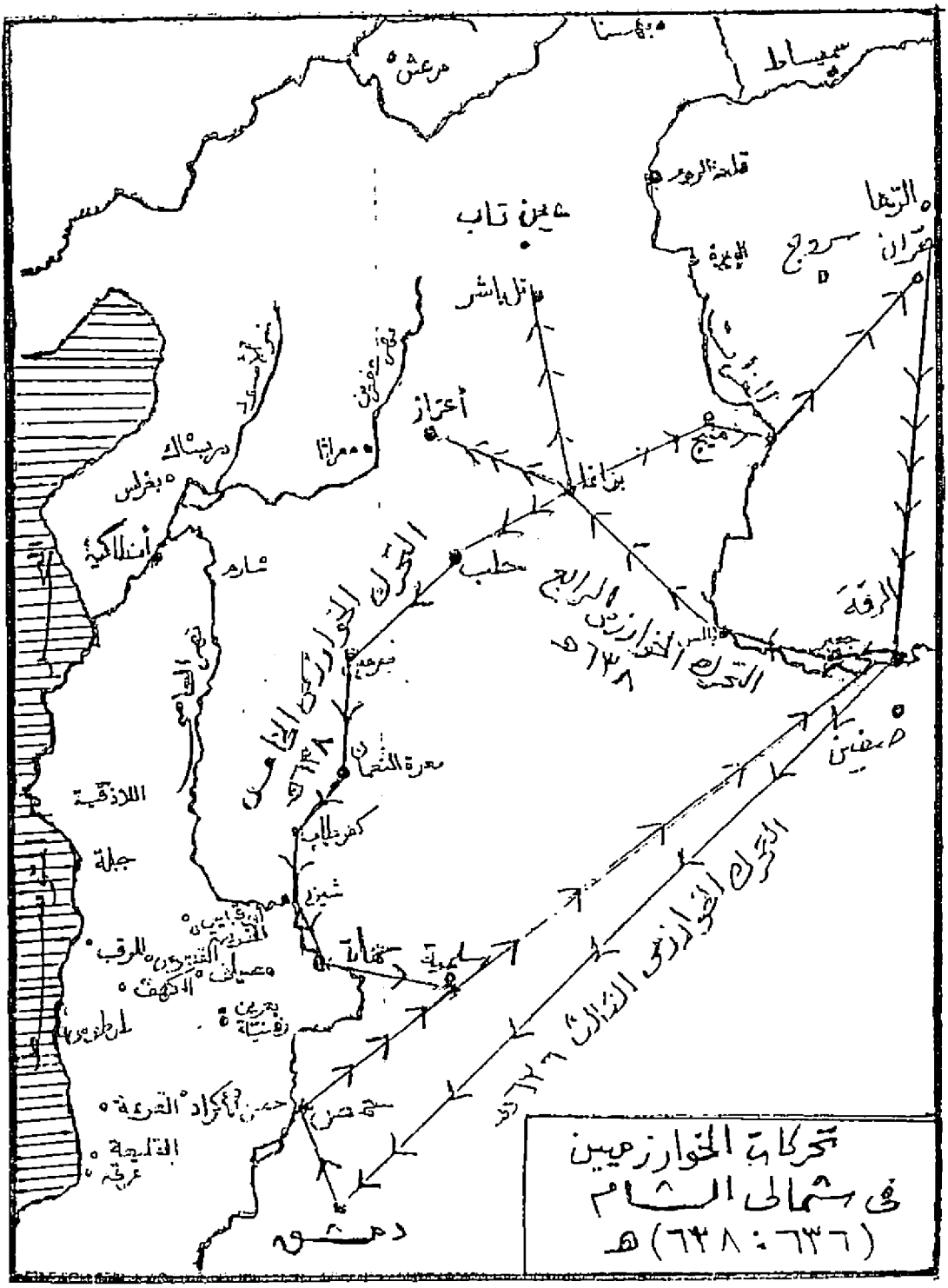

تحركات الخوارزميين
في شمالي الشام
(٦٢٦ : ٦٢٨) هـ

ولما سافر الملك الجواد إلى الشرق، واستقر الملك الصالح بدمشق طلب منه الملك المظفر صاحب حماة أن يأذن له في منازلة – حمص وأخذها من صاحبها الملك المجاهد أسد الدين شيركوه لعداء بينهما منذ أيام السلطان الكامل، فوافق الصالح، وخرج الخوارزميون من دمشق لمحاصرة حمص تعضيداً للملك المظفر(١) فأرسل أسد الدين شيركوه مالاً كثيراً، وفرقه في الخوارزميين فقبلوا ذلك منه، فلما عرف الملك المظفر ذلك خاف من الخوارزميين ورحل عن حمص عائداً إلى بلده حماة، أما الخوارزميون فتركوا حمص ورجعوا إلى البلاد الشرقية (حرّان والرها)، وأقاموا في أخبازهم التي أقطعها لهم الملك الصالح نجم الدين أيوب(٢).

أما الملك الجواد فإنه لما وصل إلى قرية ضُمَيْر الواقعة في آخر حدود أعمال دمشق التي خرجت من يده، رأى بدوياً، فاستراب منه، وقبض عليه، فوجد معه كتباً من الملك الصالح نجم الدين إلى الخوارزميين – وكانوا آنذاك على حمص – يحسن لهم القبض على الملك الجواد، وأخذ ما معه، وأن يسيروه إليه، فعند ذلك أخذ طريق السَّماوة، وعرج عن حمص، وسار إلى عانة – وهي جزيرة في نهر الفرات شمالي هيت – فدخلها وأقام بها(٣).

ولم تكن تحركات الملك الجواد بمنأى عن أنظار الخوارزميين ومن ذلك أنه لما سار إلى الرقة بادروا إليه فأخرجوه عنها(٤) فسار إلى سنجار في مائتي

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٠٥، أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٦٣، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤١.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق٢ ص٢٨٠، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٣١، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٦٩.

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٤٤-٢٤٥.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب جـ٣ ص٢٤٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨١ – ٢٨٢.

فارس حين علم أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحاصرها – وكان بها أيدمر مملوك الجواد – فارتحل بدر الدين عنها متوهماً في كثرة جند الجواد الذي دخلها، وأقام بها سنة، حاصره خلالها الخوارزميون ثم عادوا عنه(١).

وفي ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ تمكن بدر الدين لؤلؤ من الاستيلاء على سنجار من يد الملك الجواد(٢) فلم يبق بيده إلا عانة فاشتراها الخليفة العباسي المستنصر بالله منه بمائة وعشرين ألف درهم، فسار الجواد بعد تسليمها إلى حرّان، وهي بيد الخوارزمية، فأقام عندهم سنة، وسار إلى حلب معهم وقاتل أهلها، ثم عاد معهم إلى حرّان(٣) كما سيأتي القول.

وكان الصالح نجم الدين أيوب قد توجه من دمشق في شوال سنة ٦٣٦هـ صوب مصر على نية اعتلاء سدة العرش فيها بعد أن حرضه كبار الأمراء في مصر، ووعدوه بخلع أخيه العادل وإجلاسه مكانه، وحين وصل إلى نابلس من أرض فلسطين تفرق عنه عسكر دمشق، ولم يتبق معه إلا بعض خواصه الذين قدموا في صحبته من الشرق، فقد انتشر الخبر بأن الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك آنذاك، والملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص قد استوليا على دمشق في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من صفر سنة ٦٣٧هـ، وأسرا ابنه الملك المغيث في قلعتها(٤).

وفي شهر ربيع الأول وقع الصالح نجم الدين أيوب في أسر ابن عمه الملك

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٤٥.

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٢ ص١٦٦، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٠.

(٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص١٣١، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٤٦.

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٢٠، الصفدي : تحفة ذوي الألباب جـ٢ ص١٤٥، ابن إبراهيم الحسني : شفاء القلوب ص٣٣٢.

الناصر داود صاحب الكرك الذي سجنه بقلعتها حتى أواخر رمضان من نفس السنة(١).

وفي أثناء فترة اعتقاله بالكرك تعرض نجم الدين لخطر الهلاك من قبل خصومه الأيوبيين، فقد أرسل سلطان مصر الملك العادل إلى الناصر داود، وطلب تسيير أخيه نجم الدين إليه وعرض أن يعطى الناصر مقابل ذلك أربعمائة ألف دينار، وأن يفتح دمشق، ويسلمها إليه، فسيّر إليه الناصر الجواب يقول: «إذا فتحت دمشق وسلمتها إليّ سلمته إليك»(٢) كذلك أرسلت والدة السلطان العادل من مصر إلى الملك الناصر داود بقفص حديد ليجعل فيه الملك الصالح نجم الدين ويرسله إلى الديار المصرية وبذلت فيه – علاوة على ما عرضه ابنها – للملك الناصر مائة ألف دينار، وكاتبه الصالح إسماعيل صاحب دمشق وأسد الدين شيركوه صاحب حمص، قبل وفاته في رجب سنة ٦٣٧هـ – في إرساله إلى دمشق وبذل الصالح إسماعيل فيه للناصر ربع دمشق فما أجاب(٣).

فلِمَ توقف الناصر داود في تسليم الصالح نجم الدني أيوب لخصومه من الأيوبيين المتعطشين لإراقة دمه؟

أهو عامل القرابة والنسب؟ فالرجلان أبناء عمومة صريحة النسب، والصالح نجم الدين هو أخو الأميرة عاشوراء ابنة السلطان الكامل الذي زوجها للناصر داود، وأخيراً فالرجلان مولودان في سنة ٦٠٣هـ(٤) فهما الآن في سن واحدة هي الرابعة والثلاثون.

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص١٦٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٠٩.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص٢٩.

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٦٤ – ٢٦٥، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٣٨.

(٤) ابن إبراهيم الحسلي: شفاء القلوب ص٣١٣، ص٣٣٠، ص٣٤٤.

أهو عامل النفع المادي؟ فقد كان الناصر داوود يدرك أن أحداً من ملوك الأيوبيين القائمين بالأمر في مصر والشام، لن يجديه نفعاً عملياً يوافق ما في نفسه، وقد حكى الصالح نجم الدين أيوب نفسه حقيقة هذا الأمر – بعد أن أصبح سلطاناً على مصر – للمؤرخ المعاصر أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي الشهير بسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) فقال: «حلفني على شيء ما تقدر ملوك الأرض عليه وهو أن آخذ له دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار مضر وغيرها ونصف ديار مصر، ونصف مافي الخزائن من المال والجواهر والخيل والثياب وغيرها فحلفت من تحت القهر والسيف»(١).

أهو عامل الخوف من الخوارزميين؟ يقول النويري «وقيل: كان السبب في امتناع الملك الناصر عن تسليمه لمن بذل فيه ما بذل أن الصالح نجم الدين أيوب كان قد أرسل كاتبه جمال الدين بن مطروح إلى الخوارزميين في الحضور لمحاصرة دمشق – بعد أن استولى عليها عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك بمناصرة أسد الدين شيركوه صاحب حمص – فتوجه ابن مطروح لذلك، فلما قبض على الصالح نجم الدين، أرسل ابن مطروح رسولاً على النُجب إلى الملك الناصر، يقول له: إن فرط في الملك الصالح أمرٌ، فاعلم أن الخوارزميين لايبقون لك في البلاد قعر قصبة، فقد حلفوا على ذلك(٢).

ويؤكد المؤرخ المعاصر ابن واصل على دور جمال الدين بن مطروح في الاتصال بالخوارزميين فيقول «وكان قصاد الملك المظفر الأيوبي صاحب حماة وجواسيسه لاينقطعون عن الخوارزمية والملك الناصر داود، وقد أسفر ذلك عن سفر جمال الدين بن مطروح – كاتب الصالح نجم الدين أيوب – بتقرير بينه وبين الملك المظفر إلى الشرق، حيث اجتمع هناك بالأمير حسام الدين بركة

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان حـ٨ ق٢ ص٧٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة حـ٦ ص٣١٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب حـ٢٥ ص٣٦٥.

خان – مقدم الخوارزمية – وتحدث معه في القيام بنصرة الملك الصالح نجم الدين، وكانت معه أيضاً رسالة من الملك الناصر داود مضمونها «إن الملك الصالح نجم الدين لم يتركه الملك الناصر في الكرك معتقلاً، وإنما صان بانزاله الكرك مهجته خوفاً عليه من أخيه الملك العادل وعمه الملك الصالح، وإنه سيخرجه ويملكه البلاد، والمصلحة أن تتحركوا، وتغيروا على بلاد حلب وبلاد صاحب حمص»، ثم عاد جمال الدين بن مطروح بعد أن قضى هذا المهم إلى حماة فأقام بها(١).

وفي تقديري أن العامل الثالث وهو الخوف من الخوارزميين كان أقوى العوامل الثلاثة في التأثير على الناصر داود، وكفه عن تسليم الصالح نجم الدين أيوب لمن يطلبه، فقد أيقن الناصر داود أن هؤلاءالخوارزميين مصممون على إنقاذ صاحبهم نجم الدين، أو الانتقام له إن قتل، وإن هذا – حالة حدوثه – سيعني في المقام الأول تدمير كل ممتلكاته في الكرك وما حولها، وتعريضه هو وعائلته لخطر الهلاك أو التشرد.

أيا كان الأمر، فقد أفرج الناصر داود عن الصالح نجم الدين وتوجها سوياً من الكرك إلى القدس، وعند الصخرة المقدسة تم إجراء التحالف بينهما ضد العادل الثاني سلطان مصر، والصالح إسماعيل صاحب دمشق(٢) على ما سبق الإشارة إليه.

---

(٢) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٦٥.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٤٨ – ٢٥٠، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٢٩٢–٢٩٣.

(٢) عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٧٨ فهي تقول «لذلك أفرج الناصر داود عن الملك الصالح نجم الدين وهوبمصر، واجتمع عليه رجاله من الخوارزمية حيث توجهوا إلى القدس وتحالف معه على أن تكون ديار مصر للصالح والشام و المشرق للناصر وأن يعطيه مائتي الف دينار، وفعلاً نجحوا في خلع العادل في شوال سنة ٦٣٧هـ»، وقولها «نجحوا» يفيد أن الخوارزمية هم الذين قاموا بخلع العادل في مصر، وهذا غير صحيح، وعندما رجعت إلى المصدر الذي اعتمدت هي عليه وهوالمقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٢٩٣ لم أجد شيئاً يفيد ذلك، والصحيح أن الخوارزميين كانوا مقيمين في حران منذ غادروا حمص سنة ٦٣٦هـ كما هو وارد بالمتن سلفاً، ولم يكن لديهم كيان عسكري

التحرك الخوارزمي الرابع (حرّان – حلب)

عاد الخوارزميون – كما سبق القول – عن حصار حمص سنة ٦٣٦هـ، وأقاموا في الشرق في بلد حرّان فلما بلغهم خروج الملك الصالح نجم الدين من دمشق متوجهاً إلى مصر امتدت أطماعهم في بلاد الجزيرة، فاستولوا على قلعة حران، وملكوها، ووضعوا أيديهم على أوشين – من بلد البيرة – وطمعوا في الوصول إلى بابها، وتعدى أذاهم إلى البلاد المجاورة(١).

وكثر تثقيلهم على الملك الحافظ نور الدين أرسلان بن السلطان العادل الأيوبي صاحب قلعة جعبر، وهو يداريهم ويبذل لهم الأموال ليكفوا عنه، واتفق مع خوفه من الخوارزميين أن أصابه الفالج، وكان يخاف من ولده أن يسلم لهم قلعة جعبر بعد أن مضى هذا الابن إليهم ليطلب منهم عسكراً ليحاصر أباه فيها(٢) فأرسل الملك الحافظ إلى اخته الملكة ضيفة خاتون الوصية على الملك الناصر صاحب حلب يطلب منها أن تقايضه بقلعتي جعبر وبالس، فاتفق الأمر بينهما على أن تعوضه بعزاز، وأعمال أخرى تعادل المجموع، فسيرت من حلب مَنْ تسلم قلعة جعبر في صفر سنة ٦٣٨هـ، ووصل الملك الحافظ إلى حلب في نفس الشهر، وصعد في المحفة إلى القلعة واجتمع باخته الملكة، وتسلم نوابه قلعة عزاز وبلادها وما أضافوه إليها من الأعمال(٣).

حين علم الخوارزميون بالأمر اشتد حنقهم، فأغاروا على بلد «قلعة جعبر» ونهبوها، ووصلوا إلى بالس فأغاروا عليها أيضاً، ونهبوها، ولم يسلم

معروف أو مؤثر داخل مصر على الإطلاق.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٨، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٧٩، ويذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان جـ٣ ص١٠٨ أن قلعة جعبر تقع على نهر الفرات قرب صفين بين بالس والرقة.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٨ جـ٢ ص٧٣٣، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٢٨٠.

منها إلا من كان قد خرج عنها إلى حلب أومنبج[١] .

ولما عاث الخوارزميون في بلد قلعة جعبر وبالس وغيرهما خرج إليهم عسكر حلب، وتقدمهم الملك المعظم تورانشاه بن السلطان الكبير الناصر صلاح الدين، فنزل بالنقرة ثم رحلوا إلى منبج فأقاموا بها مدة[٢] فقصدهم الخوارزميون – بعد أن عبروا بجملتهم نهر الفرات من جسر الرقة – ومعهم جمع كثير من العرب مقدمهم الأمير على بن حديثة وكان أولاً مع الحلبيين ثم استوحش منهم، فاضطر عسكر حلب إلى التراجع والنزول في وادي بزاغاشمالى حلب، فقد كان عدده قليلاً لايزيد عن الف وخمسمائة جندي، لأن عسكر حلب الرئيسي كان موزعاً على أماكن متفرقة، فبعضه كان عند السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو نجدة له على المغول الذين تحركوا لقصد بلاده، وبعضه كان في قلعة جعبر يحفظها، وبعضه تفرق في القلاع التابعة لحلب مثل شيرز وحارم وغيرهما[٣] .

وقد انضم إلى الخوارزميين عدد من الملوك الأيوبيين انبعاثاً من مصالحهم الذاتية وأطماعهم الخاصة ومن هؤلاء الملك الجواد صاحب دمشق الأسبق، وولد الملك الحافظ صاحب قلعة جعبر، والملك الصالح ولد الملك المجاهد صاحب حمص، كما أرسل الملك المنصور الأرتقي صاحب ماردين نجدة إلى الخوارزميين، فكان جمعهم يزيد على اثني عشر الف فارس جياد غير الأتباع، وكانت القيادة الخوارزمية لبركة خان أكبر مقدميهم، ومعه من المقدمين

---

(١) ابن ايبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٤١، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٢ .

(٢) أبو الفدا : مختصر جـ٣ ص١٦٧، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٤، ثيودور بيشوف: تحفة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١١٧ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٤٩، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٢، نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص ١٧٢ .

صاروخان، وكشلوخان وبردي خان وغيرهم(١) .

وأخيراً التقى الفريقان على البيرة – وهي قرية في وادي بزاغا وهي غير البيرة الكبيرة التي تقع على نهر الفرات – في يوم الخميس الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ، فصدم عسكر حلب – على قلته – الخوارزميين صدمة تزحزحوا لها، لكنهم تماسكوا وتكاثروا على العسكر الحلبي(٢) .

وجاء علي بن حديثة ومعه جموع العرب، فخرجوا من بين البساتين من وراء عسكر حلب، ووقعوا على الغلمان والركابدارية، وانتهبوا أثقال العسكر، وكان ضررهم شديداً للغاية، فانهزم الحلبيون بعد أن أحيط بهم، فتقهقروا راجعين من بزاغا إلى حلب، والخوارزميون في أثرهم يقتلون ويأسرون، وكان على رأس الأسرى الملك المعظم تورانشاه بعد أن ثبت في المعركة، وجرح جراحات مثخنة، وقبض كذلك على أخيه نصرة الدين وعامة الأمراء، وقتل في المعركة صاحب سميساط الملك الصالح بن الملك الأفضل ولد السلطان صلاح الدين، كما قتل ابن الملك الزاهر ولد السلطان صلاح الدين وجماعة كثيرة(٣) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٠، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٣، وينفرد المقريزي في السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٣ بالقول: «وانضمت الخوارزمية على صاحب الموصل» وهو رأى لادليل عليه للعداوة المستحكمة بين الطرفين، وقد نقلت الدكتورة عفاف صبره في كتابها «التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية» ص٢٧٩ هذا القول عن المقريزي دون تمحيص فهي تقول «شارك الخوارزمية بدر الدين لؤلؤ في نفس العام سنة ٦٣٨هـ في إغارته على حلب حتى أصبح جيشه يقدر بحوالي اثني عشر ألفاً» والصواب ما أثبته في المتن عن المؤرخين المعاصرين ابن العديم وابن واصل.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٠، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٣ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٥ ص ٣٥٦، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص ٢٣٥، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٢ .

ولم يسلم من العسكر الحلبي – في وادي بزاغا – إلا القليل، واستولى الخوارزميون على جميع ثقل هذا العسكر، وقتلوا بعض الأسرى ليشترى غيره نفسه منهم بالمال، فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً(١).

أما الأهالي في أعمال حلب فقد هرع معظمهم إلى مدينة حلب نفسها باحثين عن ملجأ يحميهم، فهاجمهم الخوارزميون بعنف، فتعرض هؤلاء العزل لكل فعل قبيح من النهب والسلب والسبي، وارتكب الخوارزميون من الزنا والفواحش والقتل ما يتركبه المغول وأمثالهم(٢) وتعرضت مدينة حلب نفسها لأخطار التدمير والتخريب وأمعن الخوارزميون في الأذى، فقطعوا الماء عنها(٣) حين نزلوا حول حَيْلان – وهي قرية من قرى حلب تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء تسبح إلى حلب، وتدخل إليها قناة، وتتفرق إلى الجامع وإلى جميع مدينة حلب– وامتد الخوارزميون على النهر من هناك إلى قرية فاقين وقطعوا على جماعة من العسكر هناك أموالاً أخذوها منهم، وابتاعوا بها أنفسهم، وشرب الخوارزميون طول تلك الليلة، وقتلوا جماعة من الأسرى صبراً، فخاف الباقون، وقطعوا أموالاً على أنفسهم وزنوها، فمنهم من خلص، ومنهم من أخذوا منه المال، وغدروا به، ولم يطلقوه(٤).

وظلت قلعة حلب صامدة رغم ذلك كله، وقام من بداخلها في حفظ

---

(١) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٧، ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٤، ثيودور بيشوف : تحف الأنباء ص١١٧.

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٣، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص ٣٦٦، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٢.

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ص٧٣٥، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٨٠، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٤١.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥١، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٤، عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٨٠، وانظر معجم البلدان لياقوت جـ٢ ص٣٣٢.

الأسوار والأبواب، وكان قد بقي بها جماعة من الجند لايزيدون عن مائتي جندي تحت قيادة الأميرين «شمس الدين لؤلؤ» و«عز الدين بن مجلى» فكان هؤلاء يخرجون إلى ظاهر المدينة ليتعرفوا أخبار الخوارزميين الذين بثوا سراياهم في أعمال حلب يشنون الغارة فيها حتى بلغتْ خيلهم إلى بلد «عزاز» و«تل باشر» و«برج الرصاص» و«جبل سمعان» و«بلد الحوار» و«ظرف العمق» وغير ذلك ثم فاجئوا أهل هذا النواحي على غفلة، فلم يستطيعوا الهرب، ومن أجفل منهم لحقوه، فأخذوا من المواشي والأمتعة والحرم والصبيان ما لايحد، ولايوصف، وارتكبوا من الفاحشة مع حرم المسلمين مالم يفعله أحد من الكفار كالمغول والقرامطة[١].

وينبغي أن نتوقف هنا عند الدوافع العديدة التي حركت الخوارزميين للهجوم على مدينة حلب وأعمالها، والتي كان من أهمها :

أ – المقايضة التي تمت بين القائمين على الأمر في حلب وبين صاحب قلعة جعبر والتي أثارت حنق الخوارزميين وغيظهم كما سبق القول .

ب– تحريض الصالح نجم الدين أيوب – بعد أن علم بسقوط دمشق في أيدي عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص – للخوارزميين بأن يقوموا بمهاجمة التحالف الأيوبي المكون من ملوك دمشق وحمص وحلب التي كانت أقرب هذه المدن جغرافياً إلى أيدي الخوارزميين.

جـ– التحالف المكين بين الملك الناصر صاحب حلب وبين صهره السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو الخصم اللدود للخوارزميين، وهو الذي اضطرهم إلى الفرار من بلاده سنة ٦٣٤هـ، بعد وفاة قائدهم قيرخان في سجنه.

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٢، ابن واصل: مفرج الكروب - جـ٥ ص٢٨٤.

د – تمتع حلب بمزايا اقتصادية عديدة وصفها الجغرافي المعاصر ياقوت الحموي في سنة ٦٢٥هـ بقوله « وهي مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء، ويزرع في أراضيها القطن والسمسم والخضروات والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح »(١) .

هـ – رفض الملكة ضيفة خاتون الوصية على عرش حفيدها الملك الصغير الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب طلب الأمير الخوارزمي محمد تركان خان بن بركة خان الخوارزمي ملك الخوارزمية خطبة ابنة الملك العادل الأيوبي، بل إنها أمرت بإهانة رسوله(٢) .

وبعد أن انتهى الخوارزميون من أمر مدينة حلب وأعمالها تحركوا في اتجاه الشرق، فوصلوا إلى منبج في يوم الخميس الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ، فاعتصم أهلها بسور المدينة، ولكن الخوارزميين تمكنوا من دخولها من المواضع الضعيفة في السور(٣) ووضعوا السيف في أهلها، وقتلوا منهم مالا يحصى عدده(٤) وخربوا دورهم ونبشوها فعثروا فيها على أموال عظيمة(٥) .

وتكرر الجرم الرهيب الذي سبق أن ارتكبه الخوارزميون من قبل في مدينة حلب وأعمالها فإنهم فعلوا في أهل منبج من الفضائع ما يصفه المؤرخ المعاصر ابن العديم بقوله : « وسبوا أولادهم ونساءهم، وجاهروا الله تعالى

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٢ ص٢٨٢ – ٢٨٤ .

(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٤٣، نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص١٧٠ – ١٧١، عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٧٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٣، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٦ .

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة جـ١ ق٢ ص٤٦٩، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣ .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٥، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٦ .

بالمعاصي في حرمهم، والتجأ لمة من النساء إلى المسجد الجامع، فدخلوا عليهن، وفحشوا ببعضهن في المسجد الجامع، وكان الواحد منهم يأخذ المرأة وعلى صدرها ولدها الرضيع، فيأخذه منها، ويضرب به الأرض، ويأخذها، ويمضى، ثم رجعوا إلى بلادهم»(١) في الجزيرة .

وفي الحقيقة ، قد يصعب تفسير تلك الوحشية التي عامل بها الخوارزميون الأهالي في حلب وغيرها من المدن الإسلامية في الجزيرة والشام، ويزيد من صعوبة هذا التفسير طبيعة الحياة العادية التي كان يعيشها الخوارزميون من قبل في موطنهم الأصلي في أقليم خوارزم قبيل الهجوم المغولي الذي قاده جنكيز خان وأبناؤه منذ حوالي عشرين عاماً،وهو زمن ليس ببعيد .

حقاً نال الخوارزميين كثير من الأذى على أيدي المغول الوثنيين في معظمهم آنذاك، وتمثل هذا في القتل والسلب واغتصاب النساء علناً، وتدمير الممتلكات وإحراق المزروعات وغير ذلك من أعمال الوحشية والإجرام،غير أن ذلك كله ليس كافياً لتبرير ما فعلوه هم أنفسهم في حق إخوانهم المسلمين فيما بعد، وبخاصة أن المنطقة كلها بما في ذلك إقطاعات الخوارزميين في حرّان والرها والرقة كانت لاتزال واقعة تحت طائلة تهديد المغول المنتشرين آنذاك في أقصى الشمال الغربي لإيران .

ولعله من الأرجح أن نرجع وحشية الخوارزميين الذين لم يكونوا وحدهم في هذا الأمر ، فقد اشتركت ضمن جموعهم نجدات من الأراتقة وبعض العرب (البدو) وبعض الأيوبيين – إلى الاعتبارات التالية :

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٣، أبو الفدا:المختصر جـ٣ ص١٦٨، ثيودور بيشوف: تحف الأنباء ص١١٧ .

أ – تقاعس الحكام المسلمين في الجزيرة والشام عن مناصرة السلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي (ت٦٢٨هـ) رغم تكرار استغاثاته بهم قبيل قدوم المغول للقضاء عليه كما سبق القول .

ب– حالة التمزق والتشرد التي كابدها الخوارزميون بعد مصرع سلطانهم جلال الدين في جبل الأكراد قرب مدينة ميافارقين، فقد تخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردي والبدوي وغيرهم(١) .

جـ– خشونة الخوارزميين أنفسهم وما جبلوا عليه من غلظة وجفاء، وهي طبيعة تعودوا عليها من قديم ، فلما لم يجدوا من بينهم سلطاناً قوياً – مثل جلال الدين منكبرتي – يكبح جماح هذا الطبيعة القاسية فيهم، أطلقوا لها العنان في ارتكاب تلك الأعمال الوحشية المدمرة .

د – طبيعة الحروب في ذلك العصر، إذ كان المنتصر يذيق المهزوم ألواناً من العذاب والذل ومن أمثلة ذلك ما حدث في سنة ٦٣٠هـ فقد هاجمت جيوش السلطان السلجوقي علاءالدين كيقباذ مدينة حران والرقة وغيرهما من مدن الجزيرة، واشترك صاحب ماردين في هذا الهجوم، وفعلوا بالجزيرة مالا يفعله المغول(٢) وما حدث في سنة ٦٣٣هـ حين هاجم السلطان الكامل مدينة دنيسر الواقعة جنوبي ماردين فأخربها ما عدا الجامع وأقدم جنده على استباحة الفروج والأموال(٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٢ ص٤٩٨ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ق٨ جـ٢ ص٦٧٧هـ، الذهبي : العبر جـ٥ ص١١٧ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ق٨ جـ٢ ص٦٩٩، المقريزي : السلوك جـ١ ق١ ص٢٥١، ابن إبراهيم الحنبلي. شفاء القلوب ص٢٧١ .

التحرك الخوارزمي الخامس (حرّان - حماة)

سار الخوارزميون من حرّان في يوم الاثنين السادس عشر من رجب سنة ٦٣٨هـ وتتابعوا في الرحيل حتى وصلوا إلى الرقة وعبروا من جسرها نهر الفرات[١] ثم تحركوا غرباً في اتجاه شمالي حلب، فوصلوا إلى تل عزاز[٢].

ويبدو أن الخوارزميين كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى ارهاب قلعة حلب التي لم تقع تحت طائلتهم، وكذلك الضغط النفسي على الحلبيين حتى يسعوا في طلب الصلح معهم، فلما خاب مسعاهم في هذا الصدد اتجهوا جنوباً فوصلوا إلى سرمين وهي من أعمال حلب وفي جنوبها، فنهبوها، ودخلوا دار الدعوة الإسماعيلية بها، وكان فيها أمتعة كثيرة للناس ظناً منهم أن الخوارزميين لايجسرون على الاقتراب منها خوفاً من الإسماعيلية، فدخلوها قهراً، ونهبوا جميع ما فيها[٣].

وواصل الخوارزميون زحفهم جنوباً حتى وصلوا إلى معرة النعمان، ثم كفر طاب، فجفل منهم أهل البلدين، فنهبوا وأخربوا وأحرقوا كيفما شاءوا[٤] ثم توجهوا من هناك إلى مدينة شَيْزَر الواقعة شمالي حماة، فاعتصم أهلها بالربض الذي تحت قلعتها، فهاجم الخوارزميون الربض، ونهبوا ما أمكنهم نهبه[٥].

ولما بلغ الخوارزميون استعداد عسكر حلب للقائهم، وأنهم قد وقفوا بينهم وبين بلادهم حرّان، طلبوا ناحية حماة، ولم يتعرضوا لبلدها بنهب

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٤، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٨.

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٨، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص٣٦٥.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٥، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٩.

(٤) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٨، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص ٣٦٥.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩٠، عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨٢.

ولافساد، لأن صاحبها منتم إلى السلطان نجم الدين أيوب صاحب مصر، والخوارزميون منتمون إليه أيضاً، ومظهرون أن كل ما يفعلونه إنما هو خدمة له لمعاداة الحلبيين، وصاحب حمص، وصاحب دمشق له، ودخل بعض الخوارزميين إلى حماة، وتزودوا منها، وباعوا فيها، ثم رحلوا ، وتجاوزوها إلى سَلَمِيْة ثم إلى الرصافة طالبين الرقة(١) .

التصدي الأيوبي

لما وصل الخبر بكسرة عسكر حلب في الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ إلى الملك المنصور إبراهيم بن الملك الراحل أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وكان نازلاً على شيزر – قبل الهجوم الخوارزمي عليها بمدة – وعازماً على الدخول إلى بلد الفرنج المجاور لها للغارة عليها، وعنده من عسكره، وعسكر دمشق ألف فارس، ترك الإغارة على الفرنج، وساق بمن معه من العسكر، ووصل إلى حلب، فنزل بظاهرها يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ ملبياً بذلك استدعاء الحلبيين له(٢) .

وفي خطوة ثانية للتحرك الأيوبي في مواجهة تسلط الخوازرميين خرج من حلب المؤرخ المعاصر ابن العديم في سفارة من صاحبها توجهت إلى دمشق لتحليف صاحبها الملك الصالح إسماعيل بن العادل، فوصلت إلى دمشق في جمادي الآخرة من هذه السنة، وطلبت منه نجدة من عسكره زيادة على من كان منهم بحلب فسيّر نجدة أخرى(٣) .

وفي اتجاه عملي مؤثر تغير موقف العرب المقيمين حول حلب إذ انفصل

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٤، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٦٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٥، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٤١، ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٧ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٤، ابن واصل :مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٨ .

زعيمهم على بن حديثة عن الخوارزميين، وانضم إليه زعيم آخر هو طاهر بن غنام الذي قبل الخدمة بحلب، وكانت الملكة ضيفة خاتون الوصية على عرش حلب قد زوجت على بن حديثة بعض جواريها ، وأقطعته إقطاعاً يرضيه، ونال الإمارة على سائر العرب حول حلب، ومن ثمة انطلق العربان يناوشون الخوارزميين(١) عند التفافهم حول حلب قبل توجههم جنوباً إلى سرمين.

وأدى اكتمال صفوف الأيوبيين في حلب إلى تحرك جيشهم صوب الخوارزميين الذين كانوا قد تحركوا من سَلَمْيَة في اتجاه الرصافة، حيث وقع جمع من العرب عليهم هناك، وقد تعبت خيولهم، وضعفت لقوة السير، وقلة الزاد والعلف، فألقوا أثقالهم كلها، والغنائم التي كانت معهم من البلاد، وأطلقوا خلقاً ممن كانوا أسروه ببلد حلب، وشيزر، وكفر طاب، وساروا طالبين الرقة مجدين في السير، في حين اشتغل العرب، ومن كان معهم من الجند بنهب ما ألقوه(٢) .

وصل الخوارزميون إلى الفرات مقابل الرقة – غربي البليل وشماليه – بكرة الخميس الاثنين خامس شعبان سنة ٦٣٨هـ(٣) في الوقت الذي وصل فيه الملك المنصور وعسكر حلب إلى صفين، وساقوا سوقاً قوياً ليسبقوا الخوارزميين إلى الماء ويحولوا بينهم وبين العبور إلى الرقة، فوصلوا بعد وصول الخوارزميين بساعة، فوجدوا الخوارزميين قد اجتمعوا في بستان البليل وأخذوا منها الأبواب، وجعلوها ستائر عليهم، وحفروا خندقاً عليهم، فقاتلهم

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٤ – ص٢٥٥، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٨ – ٢٨٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٨، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٧، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩١ ،ويذكر أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص٦٠٠ ، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص ٣٦٥، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣، أن ذلك كان في أواخر شهر شعبان وما ذكرته في المتن أوثق للمعاصرة.

العسكر الحلبي إلى بعد العشاء، وأخذ من الغنائم التي لهم شيئاً كثيراً، غير أن هذا العسكر الحلبي – أمام نقص الزاد والعلوفة للدواب – اضطر في الليل إلى العودة إلى منزلته السابقة في صفين[١] مخافة المباغتة من قبل الخوارزميين.

ونام جماعة من الرجالة الحلبيين في (البليل) فوقع عليهم الخوارزميون، فقتلوهم، ثم عبروا الفرات إلى الرقة، وقد هلكت دوابهم إلا القليل وأكثرهم رجالة، فسيروا إلى حرّان وأحضروا لهم دواباً ركبوها، وتوجهوا إلى حرّان[٢].

وأراد الملك المنصور العبور من «قلعة جعبر» فلم يمكنه لقلة العلوفة بها، فسار بالعساكر إلى «البيرة» وعبر بالعسكر والجموع[٣] وانضمّ إليه هناك نجدة من لدن سلطان سلاجقة الروم مكونة من ثلاثة آلاف فارس تم اختيارهم بأمر من هذا السلطان من «خرتبرت» و«ملطية» و«ابلستين» و«مرعش» المتاخمة لحدود الشام لمؤازرة الشاميين ومعاضدتهم وكان على رأس هذه النجدة القائد ظهير الدين منصور الترجمان، فلحقت بحلب في مدة لاتتجاوز ستة أيام، ومن ثم توجهوا إلى البيرة مصممين على قتال الخوارزمية[٤].

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٧، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩١ وانظر عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨٢ وهي تذكر أن الخوارزميين هم الذين تقهقروا إلى صفين، وهذا القول غير الذي ذكرته في المتن منقولاً عن نفس المصدرين.

(٢) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٦٨، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣.

(٣) ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٦٦.

(٤) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص ٢٦٤، عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٨٣، ولكنها تقول «ومن الغريب أن غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم أرسل جيشاً لنجدة الأيوبيين» وليس هناك في تقديري ما يدعو للاستغراب للمصاهرة بين غياث الدين وصاحب حلب، الذي كان قد سك العملة باسم غياث الدين، وأرسل له جيشاً يعينه في حربه ضد المغول كما سبق القول، ويبدو أن الدكتورة عفاف قد نقلت هذا الرأي حرفياً عن الدكتور نافع توفيق العبود في كتابه «الدولة الخوارزمية» ص١٧٤ والذي ينسبة دون تمحيص إلى ابن العديم في كتابه زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٨.

وهكذا ازداد الجيش الحلبي قوة، فسار حتى نزل ما بين سروج والرها، فحاول الخوارزميون أن يكبسوا يزك (استطلاع) الحلبيين غير أنهم لم يفلحوا ليقظة الحلبيين الذين تحركوا صوبهم، فولى الخوارزميون بين أيديهم إلى سروج ثم إلى حرّان حيث أعادوا تجميع قواتهم، وضموا إليهم عوام حرّان والزموهم بالخروج معهم ليكثروا بهم سوادهم، فلما وصلوا إلى قرب «الرها» عند جبل يقال له «جلهمان» اجتمعوا عليه، ورتبوا عسكرهم وعملوا رايات من القصب وضعوها على الجمال ليلقوا الرعب في قلوب العسكر الحلبي(١).

ومن ذلك يتضح مدى التغير الذي طرأ على الموقف العسكري، فقد أصبح الخوارزميون في وضع حرج لايحسدون عليه، وتحددت نتيجة المعركة القادمة سلفاً، ففي الحادي والعشرين من رمضان سنة ٦٣٨هـ، ولي الخوارزميون منهزمين،وركب الملك المنصور صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بين الطرفين(٢).

ولم يعد أمام الخوارزميين سوى التقهقر ثانية صوب معقلهم الأخير في مدينة حران، وكان بركة خان زعيم الخوارزميين قد رتب بقلعتها شهاب الدين زندري الذي كان يعمل كاتباً بديوان الإنشاء لدى السلطان الخوارزمي الراحل جلال الدين منكبرتي، ليكون وزيراً له ونائباً عنه في قلعة حران فلما سمع شهاب الدين بانكسار بركة خان والخوارزميين عند الرها عزم على التوجه نحو بلاد سلطان سلاجقة الروم وتسليم القلعة إليه وكان الملك المنصورصاحب حمص قد بذل بدوره الوعود سراً لشهاب الدين زندري ومن

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٧ – ٢٥٨، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩١ – ٢٩٣.

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٩٩، ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩١.

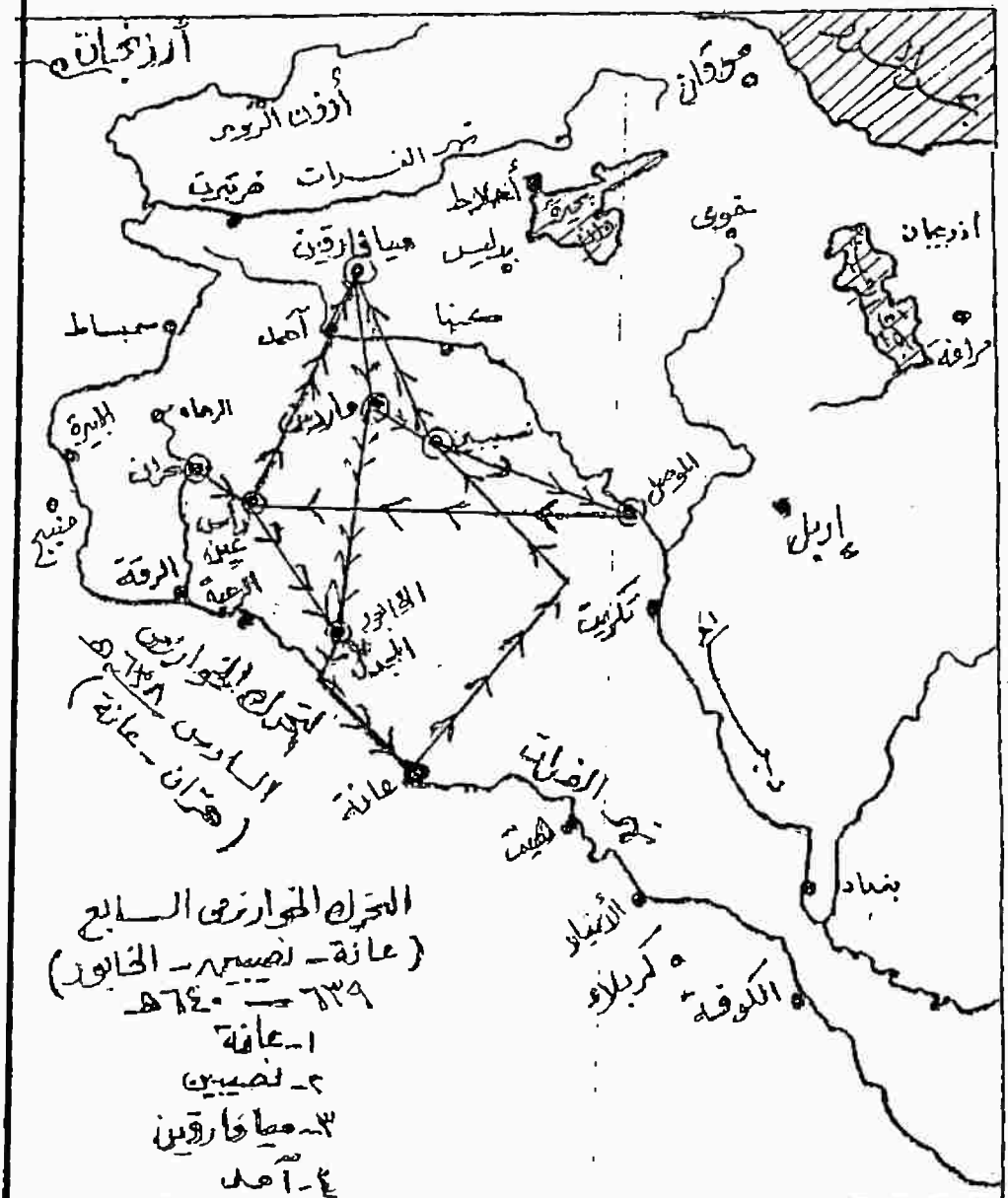

التحرك الخوارزمي السابع
(عانة - نصيبين - الخابور)
٦٣٩ — ٦٤٠ هـ

١- عانة
٢- نصيبين
٣- ميافارقين
٤- آمد
٥- ميافارقين
٦- الموصل
٧- رأس عين
٨- ميافارقين
٩- الخابور
١٠- الجميل

تحركات الخوارزميين في بلاد الجزيرة
٦٣٨ — ٦٤٠ هـ

معه لتسليم القلعة إليه[١].

التحرك الخوارزمي السادس (حرّان - عانة)

أدرك بركة خان والخوارزميون مدى خطورة بقائهم داخل أسوار قلعة حران، ومن ثمة خرجوا عنها هاربين بنسائهم إلى الخابور[٢] ولم يكن بوسع القلعة أن تصمد عقب ذلك سوى بضعة أيام استسلمت بعدها للحلبيين، فأخرج من كان بها من الأسرى من أمراء حلب، وأقارب السلطان الملك الناصر[٣].

أما الخوارزميون الذين ساروا مع زعيمهم بركة خان منهزمين من حرّان إلى الخابور فقد سار مسرعاً في أثرهم الملك المنصور، فاضطروا إلى إلقاء أثقالهم وبعض أولادهم، ونزلوا في طريقهم على الفرات، فجاءهم السيل في الليل، فأغرق منهم جمعاً كثيراً، فدخلوا إلى باب (عانة) واحتموا فيه لأنه بلد تابع للخليفة[٤] العباسي المستنصر بالله.

---

(١) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص ٢٦٥، وتقول الدكتورة عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨٣ «وعينوا عليهم بركة خان والياً من قبلهم» والمعنى أن الخوارزميين عندما تراجعوا إلى حرّان قد عينوا عليهم بركة خان والياً، وبمراجعة المصدرين اللذين رجعت إليهما الدكتورة عفاف وهما أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص١٦٨، ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٨ وجدت أن الأول لم يذكر شيئاً عن هذا الموضوع وأن الثاني يقول «ورتبوا في قلعة حران والياً من جهة بركة خان» وبالرجوع إلى ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩٣ وجدته يقول: «ورتب حسام الدين بركة خان والياً من قبله بقلعتها» ويتفق ذلك تماماً مع ما أثبته في المتن.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٤، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٤٤.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٩، ابن واصل، مفرج الكروب جـ٥ ص٢٩٤.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٩، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٣، ثيودور بيشوف: تحف الأنباء ص١١٧.

ويبدو أن الخوارزميين قد أرادوا أن يؤكدوا لخصومهم من الأيوبيين وحلفائهم أنهم قد صاروا في حماية الخليفة العباسي، وتحت رعايته، ومن ثمة فقد سار الأمير محمد تركان بن بركة خان زعيم الخوارزمية من عانة إلى بغداد، فخرج إليه موكب الديوان، وتلقاه شمس الدين محمد بن عبد الله حاجب باب المراتب في ظاهر السور، ودخل معه فقبل العتبة، ودخل دار الوزارة، فخلع عليه نصير الدين بن الناقد نائب الوزارة، وقُلِّدَ سيفاً، وأسكن داراً بدرب دينار الصغير، وكان عمره نحواً من عشر سنين، ووصل بعده ابن كشلوخان أحد أمراء الخوارزمية ، واعتمد معه مثلما اعتمد مع المذكور(١) .

وجدير بالذكر أن علاقة الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣ – ٦٤٠هـ) الذي كان يتحسب خطر المغول على بغداد وما حولها من أملاك الخلافة العباسية كانت طيبة مع الخوارزميين منذ أيام سلطانهم الأخير جلال الدين منكبرتي (ت٦٢٨هـ) كما سبق القول، كما أن هذا الخليفة كان قد استخدم أربعة الآف فارس خوارزمي من الخوارزميين في سنة ٦٣١هـ كما تشير إلى ذلك بعض المصادر المعاصرة(٢) .

وكان المغول بقيادة جورماغون قد حلوا مكان الخوارزميين منذ سنة ٦٢٨هـ في غربي إيران، ومن هناك تابعوا مهاجمة أملاك الخلافة العباسية في إربل ودقوقا وأعمال بغداد نفسها، وتمكنوا في ذي القعدة سنة ٦٣٥هـ من هزيمة جيش الخليفة العباسي المستنصر بالله عند جبل خانقين القريبة من شرقي بغداد، وقتلوا هناك عدداً كبيراً من المسلمين، ثم راسلوا الخليفة المستنصر بالله في ربيع الآخر سنة ٦٣٦هـ، فأنفذ إليهم رسولاً صحبة رسولهم فعاد إليه سنة

---

(١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ١٤٤ ؛ ابن السيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٦٥ .

(٢) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ١٧٦ ، وانظر أيضاً : نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية ص ١٦٨ ؛ عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٧٣ .

٦٣٧هـ، وبلغ من شدة الضغط المغولي على العراق في هذه السنة أنه لم يحج أحد من هناك إلى الأراضي المقدسة(١) .

ومن هذا يتضح مدى صعوبة الموقف العسكري للخلافة العباسية آنذاك، وهو الأمر الذي جعل من احتماء الخوارزميين – بعد هزيمتهم سنة ٦٣٨هـ – بعانة التي اشتراها الخليفة العباسي سلفاً من الملك الجواد الأيوبي سنة ٦٣٧هـ وضعاً يتناسب مع طبيعة علاقتهم بهذا الخليفة، وتأكد ذلك من خلال مظاهر الاحتفاء بزيارة بعض أمرائهم لبغداد والذين اصطحبوا معهم جماعات من الخوارزميين(٢) .

نتائج الصراع الخوارزمي الأيوبي سنة ٦٣٨هـ

لم يكن الصراع الذي دار بين الخوارزميين من جهة وخصومهم من الأيوبيين في حلب وحمص ودمشق وحلفائهم من سلاجقة الروم والعربان أمرًا هيناً، فقد ألقى ظلالاً قاتمة من الضعف والانقسام على الشرق الأدنى الإسلامي في مرحلة حرجة كاد المغول خلالها أن يطبقوا عليه من ناحية الشرق والشمال الشرقي، وجثم فيها الصليبيون على معظم سواحله الغربية، وانتشرت في قلب ربوع الشام قلاع الإسماعيلية الثمانية ناشرة ألواناً من الهول بين العامة والحكام أنفسهم، وقد تمخض هذا الصراع الخوارزمي الأيوبي عن نتائج عديدة أهمها :

أ – فقدان الخوارزميين لكثير من إقطاعاتهم المهمة في بلاد الجزيرة، فقد استولى عسكر حلب على حرّان والرها وسروج ورأس عين والرقة، واستولى

---

(١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١١٣ – ١١٤، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ١٨١ .

(٢) ابن العبري : أخبار سلاجقة الروم ص٢٦٥ .

المنصور إبراهيم صاحب حمص على الخابور(١) .

ب- بروز دور صاحب الموصل الأمير بدر الدين لؤلؤ في مناصرة الأيوبيين

فقد بادر هذا الأمير إلى نصيبين ودارا (بلدة بين نصيبين وماردين) وكانتا للخوارزمية، فاستولى عليهما وخلص من كان بهما من الأسرى، وكان فيهم الملك المعظم تورانشاه بن الناصر صلاح الدين الكبير - وكان سجيناً بدارا - من حين أسرته الخوارزمية من كسرة الحلبيين، فحمله بدر الدين إلى الموصل، وقدم له مراكب ، وثياناً وتحفاً كثيرة، و بعث به إلى عسكر حلب(٢) .

جـ- استيلاء عسكر سلاجقة الروم على مدينة «آمد» وكانت تحت حكم المعظم تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب، وذلك أن أمراء الروم لم يرضهم ما أصابوه من الغنائم التي انتزعوها من الخوارزميين في حرّان والرها وغيرهما، فكتبوا إلى سلطانهم غياث الدين كيخسرو يطلبون مدداً ومعدات قتال لمحاصرة آمد، فأرسل إليهم ، ووافتهم نجدة من عسكر حلب غير أن ذلك لم يجد نفعاً أمام مناعة أسوار المدينة، فتم الاتفاق سراً مع الحراس على تسليمها مقابل مال جزيل، فسلموها للروم، فأخرجوا منها الملك المعظم تورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتركوا له حصن كيفا، وقلعة الهيثم(٣) .

د - ترويع الأهالي المسالمين في غربي الجزيرة وشمالي الشام،وتعريضهم لأسوأ حالات التعذيب والقتل والاغتصاب .

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٥، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٦٦،ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣.

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٦٨، ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٣٥٧، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٣.

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٦٦، ص٢٧٠، ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٨٦، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٨٠، وهو ينقل عن سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٤ قوله: «إن الروم قد اشتروها أي آمد بثلاثين الف دينار».

هـ- تبديد الممتلكات الخاصة والمزارع ونهب المتاع والمواشي واستصفاء الأموال(١) .

و – إهدار الطاقات العسكرية للمسلمين في وقت حرج كانوا في أمس الحاجة فيه لتوحيد صفوفهم في مواجهة العدوين الكبيرين المغول والصليبيين.

التحرك الخوارزمي السابع (عانة – نصيبين – الخابور)

أعاد الخوارزميون ترتيب أنفسهم في عانة من جديد، وشرعوا في الخروج منها في مطلع سنة ٦٣٩هـ، وساروا في اتجاه الموصل – وكانوا يدركون أن صاحبها لايقوى على الوقوف في وجوههم – فسارع بدر الدين لؤلو صاحب الموصل إلى مسالمتهم والاتفاق معهم، وسلمهم مدينة نصيبين لتكون لهم(٢).

وتدخلت الظروف السياسية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي لتجعل من الخوارزميين من جديد قوة عسكرية مطلوبة، ذلك أن المغول كانوا قد أحكموا قبضتهم على غربي إيران كله، وامتد نفوذهم ليشمل أذربيجان وبلاد الكرج (أرمينية الكبرى) وأصبح غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم تابعاً لهم ومؤدياً إليهم الجزية، فامتد بصرهم تجاه إقليم الجزيرة الذي كان مرتعاً للصراع الدموي بين الأيوبيين وخصومهم الخوارزميين، فرأوا أن مفتاح السيطرة على هذا الإقليم يبدأ من مدينة ميافارقين لموقعها الجغرافي

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٥٢، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٢٨٥، عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨١ .

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٠، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٤، عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٨٤ .

المتميز من جهة ، ولضعف دفاعاتها عن الصمود في وجوههم من جهة أخرى، ومن هذا المنطلق أرسل الخان الأعظم أوكتاي بن جنكيز خان (٦٢٦ : ٦٣٩هـ) رسولاً سنة ٦٣٨هـ إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين يقول له : « قد جعلتك سلاح دار، وأمرتك بتخريب أسوار بلادك جميعها، فقال شهاب الدين للرسول – وكان شيخاً لطيفاً مسلماً من أهل أصفهان كما يقول المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزي – « أنا من جملة الملوك وبلادي حقيرة بالنسبة إلى بلاد الروم والشام ومصر، فتوجه إليهم، فمهما فعلوا فعلته »[١] .

ولم يكن التهديد من قبل المغول هو الخطر الوحيد الذي يتهدد ميافارقين، فسلاجقة الروم الذين احتلوا مدينة آمد الواقعة على نهر الفرات جنوبي ميافارقين امتدت أطماعهم إليها، يقول المؤرخ ابن البيبي « ولأن سلاطين الروم قد اصطلحوا على أنهم طالما لم يصبحوا مالكين لميافارقين، ولم يغدوا قاهرين للطغاة المردة في تلك الديار، فلابد لمظلتهم أن تبقى مغلقة أبداً، ومن ثم دعا السلطان غياث الدين العساكر إلى قيصرية واستنجد بصاحب حلب وملوك الموصل وماردين والجزيرة، وكان الملك شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين قد علم بالأمر قبل ذلك فنهض لتداركه، فدعا إليه الخوارزميين الذين خلصوا إلى بغداد، ولاذوا بحمى المستنصر بالله، وكان زعيمهم ابن أخت السلطان جلال الدين قد انضمَّ إليهم قادماً من شيراز بقوات شرفية[٢] وانضمَّ إلى هؤلاء بطبيعة الحال الخوارزميون الموجودون في نصيبين منذ مطلع هذا العام كما سبق القول.

---

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان حـ٨ ق٢ ص٧٣٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٨، عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص٣٢٢ .

(٢) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٧٦، ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٨٦ .

وسير الملك المظفر شهاب الدين غازي إلى حلب وأعلم القائمين بالأمر فيها باتفاقه مع الخوارزميين، وطلب موافقته واليمين له على أنه إذا قصده سلطان سلاجقة الروم دافعوا عنه، فلم يوافقه الحلبيون على ذلك(١) .

وفي الحقيقة لم يكن بوسع الحلبيين أن ينضموا إلى التحالف بين الملك المظفر شهاب الدين صاحب ميافارقين والخوارزميين لأسباب عديدة منها :

١- سوء العلاقات بين الحلبيين والخوارزميين الذين ارتكبوا في حق المسلمين في حلب وما حولها من الجرائم ما لايمكن اغتفاره.

٢- سلبية صاحب ميافارقين رغم كونه شقيقاً للملكة ضيفة خاتون الوصية على عرش حلب في أثناء تعرضها للهجوم الخوارزمي في العام السابق.

٣- ارتباط الحلبيين بعلاقات وطيدة مع سلطان سلاجقة الروم نجمت عن التجاور المكاني، والمصاهرة ، وظهرت في سك العملة له والدعاء له فى الخطبة، وتدعيم هذا السلطان لجيش حلب في صراعه القريب ضد الخوارزميين.

٤- الخوف من تصدع التحالف الأيوبي الذي كان يضم الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص، والملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق.

أياً كان الأمر فقد تحرك الخوارزميون إلى ميافارقين وتجمعوا حولها(٢) وهناك اكتمل هذا التحالف بانضمام أتراك الكرمانية بعد أن نجح الملك المظفر شهاب الدين غازي في استدراجهم إليه بالمال والآمال، وأخيراً تم الاستعداد للقتال بتدعيم خندق ميافارقين وسورها وترتيب المجانيق والعرادات(٣) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٠، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٤.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٨٦، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٦.

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٧٦، وتقول د. عفاف صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٨٥ ، فلم يجد المظفر شهاب الدين غير الخوارزمية كقوة مرتزقة من الممكن أن تقدم له يد العون ، والظاهر أنها لم تطلع على المصدر المعاصر للأحداث الذي رجعتُ إليه، وهو ابن البيبي (ت ٦٨٤هـ).

وتحرك الخوارزميون من ميافارقين صوب آمد لتخليصها من أيدي سلاجقة الروم أعدائهم القدامي، فخرج عسكر حلب بقيادة المعظم فخر الدين تورانشاه بن السلطان الكبير صلاح الدين، فوصل إلى حرّان في صفر سنة ٦٣٩هـ، ثم نجح الحلبيون في دفع الخوارزميين عن مدينة آمد فارتدوا إلى مدينة ميافارقين حيث اعتصموا بحاضرها خارج البلد(١).

ويصف المؤرخ ابن البيبي المعركة التي وقعت خارج أسوار ميافارقين فيقول: «فلما بلغ سلاجقة الروم وجند الشام ميافارقين نزلوا حولها، وكانت المناوشات تقع بين الطرفين، وهطلت أمطار غزيرة، فأغرق السيل خيام جند الروم والشام، وأخذوا يتساقطون في الأوحال، وكان الخوارزميون في الجهة اليمنى، فأزاحوا الجهة اليسرى من عساكر الروم، وكانت من ولاية دانشمند، وألجأوهم إلى الخيام، وبسبب الصدمة التي ألحقها جند الموصل وملطية وكانوا يمثلون ميمنة جيش السلطان (غياث الدين كيخسرو) تراجع الأتراك الكرميانية (في جيش ميافارقين) حتى حافة الخندق فجرت الدماء سيولاً بدل الماء»(٢).

ولم يطل تعرض مدينة ميافارقين بعد المعركة السابقة للحصار – رغم تعرض رستاقها للإغارة وبلدها للنهب – من قبل جيش سلاجقة الروم وحلفائهم من الشام والموصل وماردين(٣) فقد تدخلت عوامل عديدة لرفع هذا الحصار وكان من أهمها:

١ – إرسال المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين إلى المحاصرين

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٤، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣٠٩.

(٢) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص٢٧٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٧، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٠.

رسولاً من قبله يدعوهم إلى نبذ الخصام، ويحضهم على اتباع السلام، ويذكرهم بالصلات الطيبة بين السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباذ (ت/ ٦٣٤هـ) وشقيقه الملك الأشرف بن العادل الأيوبي (ت/ ٦٣٥هـ)(١).

٢- ورود الأوامر من قبل الخليفة العباسي المستنصر بالله لهؤلاء المحاصرين بأن ينتهوا عن المحاربة والمحاصرة(٢) وكانت الخلافة العباسية آنذاك تعاني من تواتر الضغط المغولي على أطراف ممتلكاتها القريبة من بغداد.

٣- إصابة الأمراء المحاصرين بالملل من جراء طول الحصار وشدة انهمار المطر، وكثرة الأوحال التي كانت تعوق حركة الجند وأدوات الحصار.

٤- رغبة الحلبيين في تخفيف الضغط عن المظفر شهاب الدين غازى لكونه أخا لمولاتهم ضيفة خاتون ابنة العادل الوصية على عرش حلب(٣).

وخرج قاضي ميافارقين إلى المحاصرين يفاوضهم على المهادنة ويأخذ منهم القسم على الالتزام بالصلح الذي نص على الآتي:

١- أن يقطع سلطان سلاجقة الروم الخوارزمية ما كان إقطاعاً لهم من قبل في بلاده، على أن يكونوا مقيمين في أطرافها.

٢- أن تُعطى الملكة ضيفة خاتون بحلب أخاها الملك المظفر شهاب الدين غازي ما تختاره هي من غير اشتراط عليها.

٣- أن يكون الحلبيون والمظفر شهاب الدين سلماً لمن هو داخل في هدنتهم(٤).

---

(١) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص ٢٧٨.

(٢) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص٢٧٨ - ٢٧٩.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٢٨٦.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٥ - ٣٠٦.

وبالنظر إلى بنود هذاالصلح يتضح استحالة تنفيذها، فالخوارزميون لن يوافقوا على العودة إلى سلطان سلاجقة الروم بعدما وقع عليهم الكثير من الأذى على أيدي رجاله منذ توليه العرش في سنة ٦٣٤هـ،وبعد أن أصبحوا الآن قوة عسكرية مؤثرة في بلاد الجزيرة على وجه الخصوص، كذلك لم يكن الحلبيون مقتنعين في الحقيقة بإقطاع أي شيء يملكونه في شمالي الشام أو الجزيرة لصاحب ميافارقين المحاصر فيها رغم ما يربطه بهم من صلات القربى، بسبب تحالفه مع أعدائهم الخوارزميين الذين لايمكن قبول الهدنة معهم.

وعلى الرغم من ذلك فقد دخلت رسل الملك المعظم تورانشاه بن الناصر صلاح الدين ومعهم بعض أمراء سلاجقة الروم إلى مدينة ميافارقين ، فأخذوا القسم على إجراء المهادنة وإتمام الصلح من صاحبها، وفي اليوم التالي ارتحل جيش الحصار جنوباً عائداً إلي آمد، وهناك أقيمت حفلة ملكية على شرف الملك المعظم تورانشاه، ثم افترقوا من الغداة حيث اتجه هو بجيش حلب إلى الشام، وتوجه جيش سلاجقة الروم إلى ملطية(١) .

أما الخوارزميون فقد استفادوا عملياً من هذا الصلح الذي لم ينتظم من أمره شيء، إذ اطلق الحلبيون لهم أسرى الحرب الذين كانوا محتجزين في مدينة حلب(٢) من العام الماضي.

واضطر صاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين غازي بن الملك المنصور –وكان قد سبق له حلف يمين الولاء لصاحب حلب الملك الناصر – إلى موافقة الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، وحلفائه الخوارزميين(٣)

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٧٩ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦١، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٦ .

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٥ ص٣٠٠–٣٠١ .

فتحركوا جميعاً إلى الموصل ، فنهبوا رستاقها واستاقوا مواشيها[١] .

ويرجع السبب في مهاجمة مدينة الموصل إلى إقدام صاحبها على التحالف مع جيش سلاجقة الروم والحلبيين واشتراك فرق من جيشه في الدفاع عن مدينة آمد ضد الخوارزميين، ثم في حصار مدينة ميافارقين كما سبق القول، فكان الهجوم على مدينته إظهاراً للرغبة في الانتقام منه، وتهديداً وزجراً له عن المشاركة في أعمال أخرى مشابهة.

ويبدو أن التوفيق الذي صادفه جيش التحالف عند مدينة الموصل قد أغرى عناصره الثلاثة : الخوارزميين وصاحب ميافارقين وصاحب ماردين بالإقدام على فكرة الانتقام من جيش حلب[٢] ومن ثمة اجتمع لدى هذا التحالف عشرون الف فارس، وانضاف إليهم جمع عظيم من التركمان، يقدمهم أمير يقال له ابن دودي[٣] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦١، ابن واصل :مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٦، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٠ . وينبغي التوقف هنا عند نص ورد لدى المؤرخ أبي الفدا في كتابه المختصر جـ٣ ص١٦٩ فهو يقول عن أحداث سنة ٦٣٩هـ « وفي هذه السنة اتفقت الخوارزمية مع الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين ابن الملك العادل » وقد نقل عنه هذا النص مؤرخون عدة منهم ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٦، ثيودور بيشوف : تحف الأنباء ص١٧، وانظر أيضاً المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣١١، فهو يقول: « وأوقع الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين بالخوارزمية » . . ! ويكمن الخطأ هنا في كلمة (اتفقت) وصحتها في تقديري (اتفقت) وهذا ينقل النص بأكمله إلى العكس أي إلى الصواب، ولعله خطأ في الإملاء وقع فيه الناسخ، إذ إن ما أورده أبو الفدا نفسه من أحداث تالية عن العلاقة بين الخوارزميين وصاحب ميافارقين يتفق مع هذا التصحيح .

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٢، عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩٢ .

(٣) ابن القوطي : الحوادث الجامعة ص١٥١، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص ٢٨٤، نافع العمود : الدولة الخوارزمية ص١٧٩، ويذكر ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٠، « وكان مع الملك المنصور التركمان ومقدمهم يسمى ابن دودا » والصواب أن =

وتحرك الملك المظفر شهاب الدين غازي بالخوارزمية فوصل إلى رأس عين، فتحصن أهلها بها مع العسكر الذي كان بها، فأمنت الخوارزمية أهلها، ودخلوها وأخذوا من كان بها من العسكر، وفي المقابل تحرك عسكر حلب تحت قيادة الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص – وكان قد ورد اتفاقاً إلى حلب – فعبر نهر الفرات إلى حرّان ، فعاد الملك المظفر شهاب الدين غازي والخوارزمية إلى ميافارقين وأطلقوا من كان في صحبتهم من العسكر الذين أخذوهم من رأس عين(١) .

ورأى الملك المنصور إبراهيم – بعد رحيل خصومه عن رأس عين – أن يتوجه مع عسكره إلى آمد، حيث اجتمع بمن كان بها من عسكر سلاجقة الروم، وأقاموا ينتظرون وصول العساكر مع دهليز السلطان غياث الدين كيخسروا لمنازلة ميافارقين(٢) .

ولم يتح ظهور المغول بقوة في شرقي دولة سلاجقة الروم الفرصة لوصول الإمدادات المتوقعة إلى مدينة آمد، فقد امتدت إغارات المغول حتى حصن زياد «خرتبرت» ونهبوا كل ما وجدوه(٣) وأشاعوا الهلع في المناطق المجاورة(٤) .

ولم يملك الملك المنصور إبراهيم انطلاقاً من الاستراتيجية التي انتهجها أسلافه الأيوبيون والتي تمثلت في تحاشي المواجهة العسكرية مع المغول إلا أن

= التركمان كانوا في جيش الخوارزميين وصاحب ميافارقين وصاحب ماردين،ولم يكونوا في جيش الملك المنصور إبراهيم الذي كان يقود جيش حلب» كما ورد في المتن.

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٢، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٠٦ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٣ – ٢٦٤، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣١٠ .

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٨٦، ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب ص٣٠١

(٤) العيني : المغول ص ١٨٣، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ١٨٢ .

يسحب العسكر الحلبي الذي كان معه في آمد ويعود به إلى رأس عين[١].

ولم يكن موقف الملك المظفر شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين القريبة من خرتبرت التي احتواها المغول منذ قليل ليختلف كثيراً عن موقف خصمه الملك المنصور الأيوبي تجاه هؤلاء المغول، فبدلاً من الاستعداد لمواجهتهم أو التحالف مع قوى إسلامية أخرى ضدهم، بادر الملك المظفر شهاب الدين فجمع أمراء الخوارزمية – وكان قد وافقهم صاحب ماردين – وشاورهم في الأمر، ولما كان هؤلاء بدورهم عازفين عن الدخول في أي مواجهة مع المغول، فقد قالوا للملك المظفر لابد من لقاء العسكر الحلبي، فقال المصلحة أن نمضي ونخرب بلد الموصل، فلم يلتفتوا إليه، فالجأته الضرورة إلى موافقتهم، فلما كان الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٤٠هـ تحركوا من جبل ماردين إلى دُنيسر الواقعة جنوبيها ، وكانت تابعة للملك السعيد صاحب ماردين، ومن هناك وصلوا جنوباً إلى الخابور ثم ساقوا إلى المجدل[٢].

ولما علم الملك المنصور إبراهيم بذلك تحرك على رأس جيش حلب من رأس

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣١٠، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٣٠١.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري : نهاية الآرب جـ٢٩ ص٣٠٠، وتقول د. عفاف صبره : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، «وتشجع الخوارزمية والملك المظفر فأغاروا على دُنَيسر وهي تابعة لصاحب ماردين» على حين يقول عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص ١٩٢، «ولكن قيام الخوارزمية بالتحالف مع صاحب ماردين عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م أدى إلى قيام الحروب والاضطرابات في المنطقة من جديد، وقد انضم شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين إلى هذا التحالف، وقاموا بتخريب مناطق عديدة في الجزيرة، فتقدمت قوات حلب لقتالهم» وأميل إلى تأييد الرأى الثاني لأنه يتفق مع طبيعة الأحداث التي سبق إيرادها في المتن سلفاً، كما أن المصدرين اللذين اعتمدت عليهما د. عفاف صبره وهما ابن العديم في كتابه زبدة الحلب، وابن واصل في كتابه مفرج الكروب لم يشيرا إلى تحرك الملك المظفر غازي والخوارزميين إلى دنيسر على أنه إغارة ترتب عليها أعمال نهب وسلب وقتل كما درج الخوارزميون على مثل ذلك في مواقف أخرى مشابهة، وإنما اكتفيا بالقول إن دنيسر كانت تابعة آنذاك لصاحب ماردين.

عين، وتوجه من هناك إلى المجدل(١) فاصطف الخوارزميون ميمنة وميسرة، والملك المظفر شهاب الدين غازي في القلب، واقتتلوا فصدمهم عسكر حلب صدمة رجل واحد(٢) فكانت الهزيمة على الملك المظفر والخوارزميين والتركمان وذلك في يوم الخميس لثلاث بقين من صفر سنة ٦٤٠هـ(٣).

وقد أسفرت المعركة السابقة عن نتائج مهمة منها :

أولاً : فرار صاحب ميافارقين الملك المظفر شهاب الدين غازي، ووقوع أثقاله وغالب عسكره في قبضة عسكر حلب، ونزول خصمه الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص في خيمته واحتواؤه على خزائنه(٤).

ثانياً : هزيمة الخوارزميين، ونهب أموالهم وخيامهم ، ووقوع نسائهم مع مالديهن من الأموال والحلي والذهب في أسر عسكر حلب، حتى إنه لم يفلت منهن واحدة(٥).

ثالثاً : تبديد شمل التركمان وانتهاب عسكر حلب خيلهم وأغنامهم ونساءهم وكانوا خلقاً عظيماً(٦).

وهكذا غنم العسكر الحلبي من الخيل والبغال والجمال والأغنام والآلات

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٤، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣١٠.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠١.

(٣) الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٠،ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٧، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٢٧.

(٤) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٠، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص٢٤٧، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص ٢٨٤.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣١، ابن القوطي : الحوادث الجامعة ص١٥١، ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٧.

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠١.

مالا يحصى[١] حتى بيع الفرس بخمسة دراهم، ورأس الغنم بدرهم[٢].

وعقب انتهاء المعركة عاد الملك المنصور والعسكر الحلبي فوصلوا إلى حلب في يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى مؤيدين منصورين[٣] فضربت البشائر بحلب وزينت أياماً سبعة[٤].

أما الملك المظفر غازي فقد عاد إلى مدينة ميافارقين، وتفرقت الخوارزمية، ثم اجتمعوا على نصيبين، ثم رحلوا فنزلوا رأس عين، فقتلوا أهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء، وفعلوا بالخابور كذلك، بل إنهم نهبوا أغنام التركمان[٥] الذين كانوا من حلفائهم بالأمس القريب!! ولعل الدافع وراء ذلك شدة حاجة الخوارزميين إلى تعويض خسائرهم أمام عسكر حلب عند المجدل، وما جبلوا عليه من غلظة وجفاء.

ويبدو أن هذا العبث الذي أثاره الخوارزميون في بلاد الجزيرة[٦] قد أثار غضب القائمين على الأمر في مدينة حلب بعد وفاة الملكة ضيفة خاتون ابنة الملك العادل في الحادى عشر من جمادي الأولى سنة ٦٤٠هـ، واستواء حفيدها الصغير الملك الناصر على العرش مستقلاً عقب ذلك، فخرج عسكر حلب في جمادي الآخرة من هذه السنة ومقدمهم الأمير جمال الدولة إقبال الخاتوني فسار وخيم في رأس عين متأهباً لملاقاة الخوارزميين[٧] الذين كانوا قد انضموا إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، وانضووا

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣١١.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠١

(٣) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧١، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٠.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣١١.

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠١.

(٦) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٢، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٢، عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩٢.

(٧) المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١١، نافع العمود: الدولة الخوارزمية ص ١٧٩.

جميعاً إلى الملك السعيد نجم الدين غازي صاحب ماردين، واحتموا بجبلها، فوصل إليهم عسكر حلب، ونزل في مقابلتهم تحت الجبل، وخندقوا حولهم وجرت بين الطرفين مناوشات، ووضح على عسكر حلب التضرر لقلة العلوفة(١).

وفي تلك الأثناء كان الضغط المغولي قد توالي على الشرق الإسلامي، ذلك أن القائدالمغولي الجديد «بايجو» نوين الذي حلَّ مكان القائد السابق جورماغون الذي عزل عن القيادة المغولية في غربي إيران منذ سنة ٦٣٩هـ نتيجة أصابته بالشلل. قد رأى أن يثبت جدارته أمام توراكيناخاتون زوجة الخاقان الأعظم المغولي أوكتاى الذي توفى سنة ٦٣٩هـ(٢)، فأصبحت تلك الأميرة وصية على العرش الخاقاني إلى حين اجتماع القوريلتاي المغولي لاختيار خاقان أعظم جديد(٣).

ومن ثمة تحركت القوات المغولية في اتجاهين الأول نحو ممتلكات الخلافة العباسية فجرى الهجوم على مدينة أربيل ثم منطقة دقوقا وأعمال بغداد حيث أعمل المغول القتل والنهب وأخذوا السبايا(٤) والثاني نحو ممتلكات سلاجقة الروم حيث جرى الاستيلاء على مدينة أرزن الروم(٥) وكان هذا كله يعنى تهديد شمالي بلاد الجزيرة والشام.

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣١٤، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥١.

(٢) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص ٢٨٠، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص١٨٢.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٢٩٠، بارتولد: تركستان من الفتح إلى الغزو المغولي ص٦٧١، القزاز الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص٥٥.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ أبناءجنكيز خان) ص١٩١ – ١٩٢.

(٥) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص٢٨٠ – ٢٨١، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٣٦، السيد العريني: المغول ص ١٨٣.

وقد فرضت تلك الأحداث نفسها على الصراع بين الحلبيين وخصومهم من الخوارزميين ومن يؤيدهم، فورد الأمير شمس الدين الأصبهاني النائب بالمملكة الرومية في أمر الصلح بين الطرفين[١] وعرض الاتفاق على الاعتبارات الثلاثة التالية :

١- يُعطى صاحب ماردين رأس عين (وهي في الجنوب الغربي من بلاده) .

٢- يُعطى صاحب ميافارقين مدينة أخلاط وأعمالها[٢] (وهي في شرقي بلاده) .

٣- يُعطى الخوارزميون خرتبرت الواقعة على نهر الفرات شمالي ميافارقين ومعها شيء من البلاد، فلم يتم للخوارزمية والملك المظفر شهاب الدين غازى ما أرضوا به بسبب الخوف من مباغتة المغول لهم، وحصل الملك السعيد صاحب ماردين على رأس عين ، وعاد العسكر الحلبي إلى حلب وبرفقته الأمير شمس الدين الأصبهاني الذي أخذ عسكراً من حلب لنجدة سلاجقة الروم في مواجهة المغول[٣] .

وهكذا رأينا كيف انهكت الصراعات الداخلية فى الشرق الأدنى الإسلامي قوى المسلمين من سلاجقة الروم والأيوبيين والخوارزميين والأراتقة، وأضعفت قوتهم جميعاً فأصبحت بلادهم مفتوحة على مصراعيها أمام الغزو المغولي الذي كان يسعى للاستيلاء على ثروات هذه البلاد، واتخاذها قاعدة ارتكاز لتدعيم انطلاقه صوب شرقى أوربا .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٦٧ ، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣٥١ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٣٨، النويري :نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠١ .

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٢٦ - ٦٣٧ ، نافع العبود : الدولة الخوارزمية ص١٨٠ .

التحرك الخوارزمي الثامن (نصيبين – غزة) سنة ٦٤١هـ

تكررت المراسلة في الصلح بين الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر، وعمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور إبراهيم صاحب حمص واتفق على :

أ– أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل، ومصر للصالح أيوب، وأن يظل كل من صاحب حمص وحماة وحلب على ما هو عليه.

ب– أن تكون الخطبة والسكة في جميع هذه البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب.

جـ– أن يطلق الصالح إسماعيل الملك المغيث عمر بن الملك الصالح نجم الدين من الاعتقال بقلعة دمشق، وأن يُخرج الأمير حسام الدين أبو على بن محمد بن أبي على الهذباني من اعتقاله ببعلبك.

ء – أن ينتزع الصالح إسماعيل الكرك من الملك الناصر داود.

فخطب لنجم الدين بجامع دمشق وبحمص وأفرج عن المغيث داخل مدينة دمشق إلى حين ، وأفرج عن حسام الدين وتمَّ استقباله في دمشق، فسار إلى مصر ومعه رسل دمشق وحمص وحلب فقدموا على الملك الصالح نجم الدين، فلم يقع اتفاق وعادت ا لفتنة بين الملوك(١) .

ويرى المؤرخ المعاصر ابن واصل أن سبب انتقاض الصلح بين الطرفين يتضح فيما حكاه له جلال الدين الخلاطي حين قال : « كنتُ بمصر رسولاً من جهة مخدومي الملك الصالح إسماعيل، وقد تقررت القواعد، ولم يبق إلا الأيمان، فورد عليّ كتاب من مخدومي الملك الصالح وفي طيه كتاب من الملك الصالح نجم الدين إلى الخوارزميين يحثهم على الحركة، ويذكر لهم أنه إنما أظهر الصلح مع عمه ليخلص ابنه المغيث من يده، وأنه باقٍ على عداوة عمه،

---

(١) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٧٢، المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٤٦ – ٣٤٧.

ولابد من قصده، وأخذ دمشق منه، فمضيت بهذا الكتاب إلى الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب وأوقفته على هذا الكتاب، وما أبدى في جواب ذلك عذراً يسوغ قبوله»(١).

وقد ترتب على عدم انتظام الصلح بين الطرفين: الصالح نجم الدين أيوب وحليفه الملك المظفر صاحب حماة من جهة والملوك الأيوبيين في الشام من جهة أخرى نتائج مهمة منها:

أ ـ منع الصالح إسماعيل الملك المغيث عمر بن نجم الدين من الركوب داخل دمشق، وكان محتجزاً في قلعتها، فأمر بإعادة حبسه في برج القلعة(٢).

ب ـ قطع الخطبة باسم السلطان نجم الدين أيوب في يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٤١هـ في مدينة دمشق ثم في حمص وحلب(٣).

جـ ـ عودة التقارب بين الناصر داود صاحب الكرك والصالح إسماعيل صاحب دمشق الذي كان قد أرسل عسكرًا إلى عجلون لحصار الناصر، فرده واتفق مع الناصر على عداوة نجم الدين(٤).

د ـ التسابق المذموم بين الطرفين على كسب ود الصليبيين في الشام، فقد اقترح الصالح إسماعيل بموافقة الناصر داود على هؤلاء الصليبيين أن يجلوا من ساحة المعبد شيوخ المسلمين الذين كفل لهم الإمبراطور فردريك الثاني البقاء بها. وسارع الصالح نجم الدين فبذل للصليبيين نفس العرض، وتأكد

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣١، وانظر أيضاً. ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٣٦.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤١، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٠٣.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٧٣، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٢.

(٤) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٣٥٩، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٤، ابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٣٦.

بذلك نجاح الداوية الذين تولوا أمر المفاوضات في الإيقاع بين الحكام المسلمين إذ استطاعوا أن يحصلوا منهم جميعاً على الموافقة بإعادة ساحة المعبد إلى العقيدة المسيحية، وكتب أروان بر يجورد رسالة مثيرة إلى أوربا في نهاية سنة ١٢٤٣م/ رجب سنة ٦٤١هـ، يقص فيها ما جرى التوصل إليه من نتيجة سعيدة، ويعلن أن طائفة الاسبتارية تعكف منذئذٍ على إعادة تحصين المدينة المقدسة(١) .

هـ- فتح الباب على مصراعيه أمام الغارات المغولية على شمالي الجزيرة والشام(٢) . وكان المغول قد استولوا على إقليم موقان ومايليه غرباً في اتجاه أرزن الروم ، وأخذوا يضغطون بقوة على شمالى الجزيرة والشام.

أما الخوارزميون فإنهم كانوا قدعادوا من جبل ماردين إلى نصيبين، فأقاموا بها، وأصبحت ملك أيديهم، وشرعوا يظهرون طاعة السلطان الملك الصالح نجم الدين صاحب مصر، وقد مرت بهم سفارة الملك المظفر صاحب حماة وحليف الصالح نجم الدين أيوب وكانت في طريقها إلى بغداد لتهنئة الخليفة العباسي المستعصم بالله بالخلافة وتعزيته في وفاة أبيه الخليفة المستنصر، وكان ضمن هذه السفارة المؤرخ المعاصر ابن واصل، فلما أدت السفارة مهمتها قفلت راجعة فمرت بنصيبين، واجتمعت هناك بالأمير حسام الدين بركة خان الخوارزمي، وجرى الحديث معه في معنى القيام بنصرة السلطان الملك الصالح نجم الدين، والمضى بالخوارزميين إلى خدمته ومعاضدته على أعدائه، فوعد بركة خان بذلك(٣) .

وبرز الملك الصالح نجم الدين أيوب من القاهرة، ونزل بظاهرها عند بركة

---

(١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٨٩ - ٣٩٠، هانس ابرهارد مايز : تاريخ الحروب الصليبية ص٣٧٠.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص١٠٣٣.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٢٣-٣٢٥.

الجب، وكتب إلى الخوارزميين يستدعيهم إلى ديار مصر لمحاربة الشاميين(١).

وفي المقابل سارع التحالف الشامي بالاتفاق على محاربة الملك الصالح نجم الدين ومباينته بعد أن علموا مكاتبته إلى الخوارزميين، فصالحوا الصليبيين، واتفقوا معهم – بالإضافة إلى ما سبق – على تسليم طبرية وعسقلان وكوكب إليهم، وأن يأذنوا لهم في عمارتها، فتسلم الفرنج ذلك كله، وعمروا قلعتي طبرية وحصنوهما، وأخذ الفرسان الاسبتارية كوكب وعزموا على عمارتها(٢).

وقد زار المؤرخ المعاصر ابن واصل القدس وهو في طريقه إلى مصر. فقال: «وسافرتُ في أواخر سنة ٦٤١هـ إلى الديار المصرية، ودخلت البيت المقدس، ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة وعليها قناني الخمر برسم القربان، ودخلت الجامع الأقصى، وفيه جرس معلق، وأبطل بالحرم الشريف الآذان والإقامة، وأعلن فيه بالكفر»(٣).

وفي أوائل سنة ٦٤٢هـ تجمع الخوارزميون تحت أمرة مقدميهم وهم يومئذٍ أربعة خانات: حسام الدين بركة خان، وزين الدين خان بردي، وعز الدين صاروخان، وبهاء الدين كشلوخان، وكانوا يزيدون على عشرة الآف فارس، وانضم إليهم أيضاً جماعة من الأمراء القيمرية (نسبة إلى قلعة قيمر بين الموصل وأخلاط) منهم الأمير ناصر الدين وضياء الدين وجماعة كثيرة من

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٧٣، المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٥.

(٢) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٧٢، ابن الوردي: تتمه المختصر جـ٢ ص٢٤٩، ابن سباط: صدق الأخبار جـ١ ص٣٣٠.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٢، ٣٣٣، وقد نقل هذه الرواية عنه ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٢، حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الاراضي المقدسة ص٢٤٦.

أصحابهم وأتباعهم(١) .

وتوجه كل هؤلاء من نصيبين إلى نهر الفرات فاجتازوه من عند جسر الرقة كعادتهم، ثم انقسموا قسمين: سار أولهما إلى حمص ثم إلى بقاع بعلبك، وسار ثانيهما حتى وصل إلى غوطة دمشق، وهم ينهبون ويأسرون ويقتلون، فانجفل الناس من بين أيديهم ، وتحصن الصالح إسماعيل بدمشق، وضمّ عساكره إليه بعدما كانت قد وصلت إلى غزة(٢) متأهبة للمشاركة في غزو مصر.

ولما كانت دمشق من القوة بما جعلهم عاجزين عن اقتحامها، فقد مضى الخوازرميون في سيرهم إلى الجليل، بعد أن تجاوزوا طبرية التي استولوا عليها، ثم اتجهوا صوب الجنوب نحو بيت المقدس بعد أن اجتازوا نابلس(٣) .

ثالثاً : الصليبيون وسقوط القدس سنة ٦٤٢هـ

بلغ الخوف من بأس الخوارزميين وقسوتهم مبلغه حتى إن الناصر داود سارع بالعودة إلى الكرك فاعتصم به، على حين بادر عدد كبير من الفرنج الذين كانوا بالقدس بعد استيلائهم عليه بالهرب إلى عكا(٤) .

يصف بعض المؤرخين المحدثين أحوال مدينة القدس قبل الهجوم

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص٣٢، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٣، الذهبي: العبر جـ٥ ص١٧١.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٧٤١، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣ ٣، نافع العبود: الدولة الخوارزمية ص١٨٠.

(٣) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٣٩١ – ٣٩٢، انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ص٢٦٢، حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص٢٤٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص٣٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٣، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ٧ ص٣٥٣.